السري الرفاء

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

— ٢ —

تحدثت في المقال السابق عن الشاعر الكندي الموصلي السري الرفاء، وذكرت ما كان بينه وبين الأديبين الأخوين المرزوقين بالخالديين من عداوة، وأنه أولع باتهامهما بسرقة الأشعار وضمّن كثيراً من شعره هذه التهمة. واليوم أعود إلى حديث هذا الشاعر، فأبين عن جانب من الوصف في شعره كيف سلك فيه وافتن في نواحيه.

هو شاعر مولع بوصف ما يرى من الحيوان ومناظر الطبيعة وآثار الصناعة. ومما راقني في شعره، وصفه خطّافاً عشش في حجرته، وتكريره هذا الوصف في شعره ودعوة أصدقائه لرؤيته وعده من محاسن داره. وفي الشعر العربي الجاهلي وصف الحيوان الوحشي والمتأنس، وصف صوره الحسية، ومعيشته وعاداته، والإعراب عن محبة الإنسان لبعض الحيوان وعطفه عليه، ومشاركته إياه البأساء والضراء، ولا سيما الجمل والفرس. ولست أعرف أدباً آخر فيه الاهتمام بالحيوان ومخالطته ومعاشرته إلى الحد الذي بلغه الشعر العربي. والذي يذكر ما نظمه العرب في الإبل والخيل، وحمر الوحش والنعام والذئب والضبع والأسد وحيوان الصيد من الكلاب والفهود والبزاة، ويذكر مثل قول المثقب العبدي في ناقته:

إذا ما قمت أرحلها بليل ... تأوه آهة الرجل الحزين

تقول إذا درأت لها وضيني ... أهذا دينه أبداً ودِيني؟

أكل الدهر حل وارتحال ... أما يبقى عليّ وما يقيني

فأبقى باطلي والجد منها ... كذكان الدرابنة المطين[1]

وقول القائل:

فمن بك أمسى بالمدينة رحله ... فإني وقيار بها لغريب

وقيار اسم جمل الشاعر.

وقول آخر:

شكى إليّ جملي طول السرى ... صبراً جميلاً فكلانا مبتلى

وقول آخر:

هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى ... وإني وإياها لمختلفان

وقول القائل:

حنينك عزة بعد الهجر وانصرفت ... فيّ ويحك من حياك يا جمل

وقول أبي الطيب:

وما الخيل إلا كالصديق قليلة ... وإن كثرت في عين من لا يجرب

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها ... وألوانها فالحسن عنك مغيب

من يذكر هذا وأمثاله يعرف مقدار ما عني شعراء العرب بوصف الحيوان بل بمصحبته ومعاشرته.

الشعر العربي حافل بهذا الضرب من الحديث عن الحيوان. وهو يدل على العطف عليه والإكبار من شأنه.

وقد حدثني أستاذ إنجليزي كبير من الأطباء البيطريين عن إعجابه بتكريم العرب والمسلمين للحيوان، ورفعهم شأنه، ومعاملته معاملة ذي الروح، والرفق به على حين كان لغير المسلمين مع الحيوان شأن آخر، وقد كتب هذا الأستاذ في هذا المعنى رسالة.

هذا موضوع واسع لا تسعه إلا المؤلفات الكبيرة، ولكني عرضت له هنا لأذكر كلف هذا الشاعر العربي الموصلي بوصف الحيوان والعطف عليه والعناية بأمره سنة شعراء العرب، ثم فرحه بطائر عشش عنده وجاوره وصاحبه.

زوجان من الخطاف اتخذا في قبة حجرته عشاً فلم يرعهما، بل أنس بهما، وسعد بصحبتهما، وذكرهما في شعره مرات، وجعلهما من محاسن حجرته، ومما يرغب أصدقاءه في زيارتهما.

انظر قوله في أرجوزة يستدعي صديقاً له:

لنا مقرّ حسن الفناء ... وقهوةٌ ضاحكة الإناء

وغرفة فسيحة البناء ... طائرة القمة في الهواء

يوطن في قبتها الظليماء ... زور خفيف الروح والأعضاء

معلق في كبد السماء ... وثارة يلصق بالغبراء

في بلق مشهّر الأحشاء ... كأنما طُوّق بالمساء

(١) الدرابنة جمع دربان: البواب. والمطين: المطلي بالطين. الذكان: المصطبة.

يُطلب أو يُخاب قلب الرائى بين غناء منه أو بناء

يذكر لصديقه أن زائراً خفيف الروح ضئيل الأعضاء يسكن فى قبته ، وأنه يصعد ويصوب ، فتارة يبلغ كبد السماء ، وتارة يُلامس الأرض ، وهو يلبس ثوباً ثنائياً بيض ، وله طوق أحمر ، كأنه طُوق بالدماء ، فمن يراه مغنياً أو يبصره بانياً عشه ، يطرب أو يتلب على تابة جال هذا الفنى الصغير والبناء الماهر فيخليه .

ويقول فى قصيدة يستزير بها صديقاً آخر ويُحسّن له الزيارة بأن له غرفة عشش فيها الخطاف وأنس بها واطمأن إليها :

وقد كتبت أيدى الربيع صحائفاً	كأن سطور البرق حسناً سطورها
فمن روضة سارٍ إلينا نسيمها	ومن مُزنة مرخى علينا ستورها
وغرفتنا الحسناء قد زاد حسنها	بزائرة فى كل عام نزورها
بعيضة الأحشاء سود شطورها	مزرّة الأذناب حمر نحورها
مرفرفة حول البيوت وفودها	محلقة حول السقوف وكورها
لمن لفتات مسجبات كأنها	صريرنعال السبت حال صريرها

(كأن صوتها صرير هذه النعال المصنوعة من جلد مدبوغ جيد)

تجاورنا حتى تشب صغارها	فيحلق فينا بالكبير صغيرُها
فزرنا ثر اللذات بيضاً وجوهها	محببة روحاتها وبكورها

أليس هذا وصف شاعر محب لهذا الطائر معجب به يرغب أصدقاءه فى زيارته بوصفه . ولولا رفقه به ورعايته له ، ما عشش وفرخ فى سقف حجرته وبقى حتى شبت صغاره فطارت مع كباره .

ويقول فى قصيدة أخرى يدعو صديقاً له ويذكر ما عنده من المرائى الجميلة ، وآلات القرء ، والفتية الأدباء ، وهذا الطائر الصديق المستجير بغرفته ، المحترم بجواره :

وغرفتنا بين السحائب تلتقى	لمن عليهـــا كلة ورواق
تقسّم زوار من الهند سقفها	خلاف على قلب النديم رشاق
أعاجم تلتذ الخصام كأنها	كواعب زنج راعهن طلاق
أنسن بنا أنس الإماء تحببت	وشيمتها غدر بنـــا وإباق
مواصلة والورد فى شجراته	مفارقة إن حان منه فراق
فزر فتية يرد الشباب عليهم	حميم إذا فارقتهم وفســـاق

فهذه غرفة يضرب السحاب عليها رواقه ، تقسمها جماعة الخطاف ، وهى فى ألوان أهل الهند ، فهو يسميها زوار من الهند وهو يسمع أصواتها عجماً لا تبين ، وهى تتصايح وتتطاير وتختلف أحياناً فتتشاجر كأنها كواعب من الزنج فى خصام .

وقد أنس هؤلاء الزوار بهذه الغرفة ، كالإماء المتوددات ، ولكنهن لا يقمن على حال فهن يهجرن الغرفة ولا يرعين الصحبة والجوار ، إنما تقيم إبان الربيع والورد فى شجره . فإن فارق الورد فارقت فما ودها إلا كهذه الزهرة ، سريعة الذبول قصيرة الليث .

هكذا يفتن شاعرنا فى وصف جاراته وإعجابه بها ، وذكر ألوانها وأصواتها ، وسرحها وخصامها ، وهذا لا شك ضرب من الشعر الطبيعى الإنسانى ، يؤلف بين الإنسان وبين ما يحيط به من حيوان ونبات ، وهو فى أدبنا كثير ، ولكنه فى حاجة إلى التنويه والجمع والترتيب .

والسرى يعد شاعر وصاف يفتن فى الوصف ، ويتناول بها الطبيعة : سماءها ونجومها وسحبها ، والأرض : أنهارها وغدرانها ورياضها وحدائقها ، والصناعات البشرية من القصور والتماثيل والسفن وغيرها . ولا يتسع المجال للاتيان بأمثلة فى هذه الموضوعات فأكتفى بمثالين :

قال يصف السفن :

كل زنجية كأن سواد اللي	أهـــدى لا سواد الأهاب
تسحب الذيل فى المسير فتختا	ل وطوراً تمر مر السحاب
وتثير الضباب كالحية السو	داء أبقت فى الرمل أثر انسياب
وإذا قدمت رءوس المطايا	للسرى قدمت من الأذناب

وقال يصف الجراد :

وجحفل من جنود الله منتشر	مثل الخناصر منقوش الحيازيم
يحل بسطة إقليم فإنه عصفت	به الصبا صيرته جو إقليم
ما شنّ وهو ضعيف البطن غارته	إلا استباح حمى الشم القماقيم
يلق على الحب فى أعلى منابته	كلا كلا تنشت نشر الحواتيم
إذا استغل أطاد الأرض معدمة	واستودع الترب تسلافير معدوم

تلك نبذة من السرى الرفاء ، ولعله يجدر بعناية الأدباء ما يؤدى حقه من نشر شعره والإشادة بذكره ...

عبد الوهاب عزام